الباب الثالث

الفتح الصليبى وصلاح الدين

القدس وحملات الصليبيين — القدس وصلاح الدين — القدس وحفدة صلاح الدين — القدس فى عهد المماليك .

obeikandl.com

obeikandl.com

القدس وحملات الصليبيين

احتل الصليبيون القدس عام ١٠٩٩ للميلاد . وقد حثهم على احتلالها البابا (أوربانوس الثانى) . وكان الراهب الفرنسى (بطرس الناسك) قد زار القدس قبل ذلك ببضع سنين ، ونقل إليه أخباراً جعلته يعتقد أنه لا بد من إنقاذ المسيحيين فى الأرض المقدسة ، وإنقاذ ضريح السيد المسيح من يد المسلمين الذين وصفهم بالكفرة ، واعداً أولئك الذين يشتركون فى الحملة الصليبية بأن يغفر لهم ذنوبهم ، ما تقدم منها وما تأخر .

ويقول المؤرخون الذين بحثوا وضع القدس فى ذلك الحين إنه كان هنالك أسباب للحملة الصليبية غير تلك التى ذكرها البابا فى رسالته . وإن المسيحيين[١] كانوا يومئذ يعيشون مع المسلمين إخوانهم فى الوطنية واللغة فى سلام وصفاء ، وإن الأسباب الحقيقية تتلخص فى :

١ — حب التخلص من الثقافة والفلسفة العربية ؛ تلك الثقافة التى تناقض الإنجيل[٢] ، وكانت منتشرة فى ذلك الحين .

٢ — الحيلولة دون اصطدام الأمراء الإقطاعيين فى أوربا وتقاتلهم ؛ وشغلهم بمقاتلة أعدائهم المسلمين[٣] .

---

(١) (مجلة الراعى الصالح) للأستاذ رئيف ميخائيل الساعاتى . ج٧ ص ١٣٣ .
و (تاريخ العرب والتمدن الإسلامى) للأستاذ سيد أمير على العضو فى مجلس شورى الملك بإنكلترا ص ٢٧٦ و (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) للمقدسى .
و Description of Syria including Palestine by Guy Le Strange

(٢) (المستشرقون) لنجيب العقيقى ص ٤٢ — ٤٥ .

(٣) A Pilgrimage to Palestine by H. E. Fosstick B. 255

٣ — جعل الأرض المقدسة لاتينية وملاشاة الأرثوذكسية منها[١] .

وقال آخرون إن الغاية الحقيقية لا هذه ولا تلك . وإنما هى غاية تجارية بحت .

ومهما تكن الأسباب فإن الحملة الصليبية الأولى كانت مؤلفة من ثلاثمئة ألف مقاتل[٢] ، ينتمون إلى مختلف الشعوب والأقوام الأوربية من فرنسيين وألمان ونمسويين ومجر وبولونيين وغير ذلك . واقترف هؤلاء فى طريقهم إلى الأرض المقدسة ألوان الفظائع والآثام . وذلك مما حدا بالأمم التى لاقوها فى طريقهم إلى مقاتلتهم . فقتل عدد كبير منهم . وعاد عدد آخر إلى بلاده قبل أن يصل إلى هدفه .

ولما وقفوا أمام أسوار بيت المقدس كان عددهم قد هبط إلى خمسين ألفاً .

حاصر الصليبيون القدس من جهاتها الأربع ، ولا سيما من ناحيتها الشمالية ، وكان على رأسهم غودفرى دو بويون أمير مقاطعة اللورين من أعمال فرنسا ، والكونت روبرت أوف نورمندى أمير مقاطعة نورمنديا ، والكونت روبرت أوف فلاندرس أمير مقاطعة فلاندرة ، والكونت تنكريد ريموند أمير مقاطعة طولوز ، والكونت سان جيل ، وريكاردوس أمير سالارنوس ، وكليرمونت ، وجرارد ، وبلدوين ، وغيرهم . . .

بدأ الحصار فى ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ م وكان فى المدينة يومئذ (افتخار الدولة) يديرها باسم الخليفة الفاطمى المستعلى بالله ؛ وكان عدد سكانها عشرين ألفاً . ولم تكن البلاد فى الحقيقة قادرة على صد تيار الصليبيين بسبب تضعضع الحكم السلجوقى بعد مقتل (نظام الملك) ١٠٩٢ والتنافس القائم بين الرقباء

---

(١) (تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية) لخليل إبراهيم قزاقيا ص ٧١ — ٧٢

(٢) (تاريخ الحروب المقدسة) للمؤرخ الفرنسى مكسيموس موند ترجمة مكسيموس مظلوم بطريرك أنطاكيا والإسكندرية وأورشليم وسائر المشرق . ص ٢٩ .

الطامعين فى العرش ، وكانت قوة الدفاع عن المدينة مؤلفة من أربعين ألف مقاتل . ولم يترك أحد الفريقين وسيلة من وسائل التغلب على خصمه إلا لجأ إليها . وكثيراً ما كانوا يتقابلون فى ساحات الوغى وجهاً إلى وجه فيقتتلون بالسلاح الأبيض .

ومضوا على تلك الحال فمن كر وفر أربعين يوماً إلى أن نفد ما لدى المسلمين من أعتدة ومؤن ، فانهارت مقاومتهم وتغلب الصليبيون عليهم . فدخلوا المدينة فى تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر الجمعة الموافق ١٥ تموز ١٠٩٩ م .

وما كادوا يدخلونها حتى حكموا على كل مسلم بقى فيها بالموت . وشرعوا من فورهم فى تنفيذ الحكم . فقتلوا سبعين ألفاً . ولم يجد المسلمين توسلهم ؛ لا ، ولا التجاؤهم إلى المسجد الأقصى . ولم يختلف اثنان من المؤرخين ، لا من الفرنجة ولا من المسلمين ، فى استفظاع المنكرات التى اقترفها الصليبيون . تلك المنكرات التى أقل ما قيل فيها إنه يندى لها جبين الدهر ، وإنها مناقضة لتعاليم السيد المسيح الذى زعموا أنهم إنما جاءوا لنصرته[1] . . . .

أرسل الصليبيون ، بعد انتهائهم من هذه المجزرة البشرية ، إلى البابا رسالة أخبروه فيها بما جرى ؛ قائلين له : إن القدس فتحت على يدهم ، وإنهم قتلوا عدداً لا يحصى من المسلمين ، وإن خيولهم فى إيوان سليمان كانت تخوض فى بحر من دماء المسلمين حتى ركبها . . . .

ثم راحوا يديرون المدينة كما يشاءون . فاستولوا على معظم المبانى والممتلكات

---

(١) (تاريخ الحروب المقدسة) للبطريرك مكسيموس مظلوم ص ١٧٤ (تاريخ القدس) لخليل طوطح و بولس شحادة ص ٢٨ .
(تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية) لشحادة خورى ونقولا خورى ص ٧٠
A pilgrimage to Palestine , by H. E. Fosstick. P. 256
(مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزى .
(النجوم الزاهرة) لابن تغرى الأتابكى ج ٥ ص ١٤٨ .

التى كانت فيها ، سواء فى ذلك ممتلكات المسلمين ، أو المسيحيين المنتمين إلى الكنيسة الشرقية . ولقدحولوا قبة الصخرة إلى كنيسة وسموها Tempelum Domini واستعملوا المسجد الأقصى لمصالحهم وكانوا يسمونه Palatium Tempelum Solomones فأنقصوا من حجمه كثيراً وقسموه إلى أقسام : فاتخذوا قسماً منه كنيسة وقسماً آخر مسكناً لفرسان الهيكل ، والباقى استعملوه مستودعاً لذخائرهم ، واتخذوا السراديب التى تحت المسجد الحالى إسطبلا لحيواناتهم .

وأسس الصليبيون من القدس والبلاد المجاورة لها مملكة لاتينية ، جعلوا مقرها القدس ؛ وأقاموا عليهم أميراً هو غودفرى دو بويون . فأخذوه إلى كنيسة القيامة وتوجوه ، ولما مات دفنوه فى داخل الكنيسة .

وفى زمن خلفه وأخيه (بلدوين الأول) ١١٠٠ — ١١١٨ م أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت إلى العقبة . وكان لها فى ميناء العقبة أسطول . وكانت تجبى الضرائب من القوافل التى تسير بين سوريا ومصر والحجاز .

غير أن الأمن كان مفقوداً . ولا سيما على الطريق التى تصل أريحا بالقدس فقد كان يرابط فى هذه الطريق عدد كبير من الأشخاص وإن أسماهم الراهب الروسى دانيال ، الذى زار القدس فى عام ١١٠٦ م ، بقطاع الطرق ؛ إلا أنهم هم الذين نجوا من المذابح ، فراحوا يتكتلون ، ويتحينون الفرص للانقضاض على الصليبيين .

وتعاقب بعد ذلك ملوك الصليبيين على كرسى الحكم : فجاء بلدوين الثانى (١١١٨ م) فمليسنده وفولك أنجو (١١٣١ م) ومليسنده وبلدوين الثالث (١١٤٤ م) وبلدوين الثالث وحده (١١٥٢ م) وآمورى الأول (١١٦٢ م) وابتدأت مملكة القدس على عهده بالاضمحلال . ثم جاء بلدوين الرابع (١١٧٣ م) وبلدوين الخامس (١١٨٥ م) وسيبل وغاى دولوسينيان (١١٨٦م) وعلى عهد هذا الأخير احتل صلاح الدين بيت المقدس . وكان الشرق يومئذ

قد أفاق من غفلته ، وصحح أغلاطه ، فاتحد . وكان أمراء الصليبيين فى القدس والكرك وفى عكا وكل مكان من الاختلاف على جانب عظيم .

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى لزاماً علينا أن نذكر بوجه الإيجاز ما كانت عليه القدس تحت ظل المملكة اللاتينية فنقول :

كانت القدس والمدن الكائنة حولها ذات أهمية من النواحى السياسية والدينية والتجارية ، إذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية التى تربط الشام بمصر . ولكنها لم تنعم بالراحة وهناء البال من ناحية الأمن لوقوعها بين أصقاع آهلة بالمسلمين ، وما تخلى هؤلاء عن غزو الصليبيين وإقلاقهم لهجماتهم المتكررة . وكذلك قل عن الأخلاق فقد انحطت يومئذ إلى درجة لا تطاق (١) . والضرائب والرسوم التى فُرضت على السكان والمسافرين كانت باهظة . وما كان هناك نظام مالى ولا طرق منظمة لجباية تلك الضرائب والرسوم .

وأما الحكم فقد كان يومئذ قائماً على أساس (الإقطاع) . وكان أمراء الإقطاع من الاستقلال بدرجة أنهم ما كانوا يقيمون للملك الجالس على العرش فى القدس وزناً . لا ، بل كان بعض هؤلاء الأمراء يحارب البعض الآخر . ونسوا الغاية التى جاءوا هذه البلاد وفتحوا القدس من أجلها .

وتكونت فى القدس فرقتان : فرقة أسموها Templiers أى فرسان الهيكل وكانت عند المسلمين تعرف بـ (الداوية) . وأخرى Hospitaliers أى فرسان المستشفى وكان المسلمون يلقبونها بـ (الاسبتارية) . أما رجال الفرقة الأولى فقد حبسوا أنفسهم لمكافحة المسلمين . وأما رجال الفرقة الثانية فكان اهتمامهم فى بادىء الأمر منصرفاً إلى العناية بالحجيج والمرضى من المسيحيين .

ثم تحولت الفرقتان إلى هيئة حربية ، واتخذتا المسجد الأقصى مقرا لأعمالها ، وجعلتاه مستودعاً لأسلحتهما .

---

(١) (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ الكنانى . ص ٩٩ .

ولم تؤثر الحملة الصليبية على البلاد من حيث اللغة ، إذ ظل سكانها عرباً ، ويتكلمون اللغة العربية .

ومن آثار الصليبيين فى القدس : — كنيسة القديسة حنة الكائنة بين باب الأسباط وباب حطة ، وهى التى يسمونها فى يومنا هذا بالكنيسة الصلاحية . وكنيسة القديسة مريم الكبرى التى بنى الألمان على أنقاضها كنيسة المخلص فى الدباغة ، وكنيسة القديسة مريم اللاتينية على مقربة من أختها التى سبق ذكرها عند مدخل سوق الدباغة . وكنيسة الداوية قبلى كنيسة القيامة . ويعتقد المسيحيون أنها كانت فى المكان الذى يقوم عليه الآن المسجد العمرى . وكانت كنيسة القيامة مجزأة فجمعوا أجزاءها تحت سقف واحد ، وبنوا القبة المعروفة الآن بكنيسة (نصف الدنيا) .

ومن آثارهم أيضاً المستشفى المعروف بالمارستان فإن هذا المستشفى الذى بنى فى زمن الفاطميين ، وسع على عهد الصليبيين توسعاً كبيراً . ومنها أيضاً النزل الذى أقاموه إلى جانب هذا المستشفى ، ومن بقاياه السوق المعروف بسوق البيزار ، وفيها تباع الخضر فى يومنا هذا .

القدس وصلاح الدين

(١١٨٧ م)

لم ينقطع المسلمون عن مناوأة الصليبيين منذ احتل هؤلاء القدس وأخذوها من الأفضل عام ١٠٩٩ للميلاد . وكان أكثر المسلمين اهتماماً بها الأمير نور الدين . إذ ما كاد هذا يملك الشام (١١٥٤ م) حتى راح يبث الأرصاد ،

ويرسل الفدائيين إلى بيت المقدس ، ليجوسوا خلال الديار ، ويأتوه بالأخبار ، ليعرف كيف ومن أين يستطيع مهاجمتها وردها إلى حظيرة المسلمين . ولقد عثر المنقبون[١] على مغارة فى أسفل جبل الزيتون ، عند مفترق وادى الجوز وقدرون حفرت على جدرانها بعض الكلمات والأسماء العربية . ولدى دراستها علموا أنها من آثار منتصف القرن السادس للهجرة . وأن هذه الأسماء التى قال بعض المستشرقين عنها إنها لطائفة من الدراويش والمتصوفين وقال آخرون إنها لبعض الخوارج وقطاع الطرق الذين كانوا يكمنون فى المغاور والكهوف ليتصيدوا المسافرين ، إنما هى فى الحقيقة أبطال كان يبعث بهم نور الدين ليأتوا إليه بالخبر اليقين . ولكن الأجل عاجله فمات قبل أن يدرك بغيته ؛ فقام بتلك المهمة ربيبه وخليفته صلاح الدين .

ما كاد ينتهى صلاح الدين من معركة حطين[٢] ، تلك المعركة التى انتصر فيها على الصليبيين (فى ٢٥ ربيع الثانى ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) ، حتى راح يفكر فى الاستيلاء على بيت المقدس . وقد سار إليها من فوره ، يتبعه جيش مزيج من العرب والترك والكرد . وعند ما وصل إليها ، حاصرها أولا من الناحية الغربية . ولكنه سرعان ما رأى أن تلك الناحية لا تصلح للهجوم ، فنقل جيشه إلى الناحية الشمالية وعسكر فى البطحاء التى تقوم عليها الأحياء المعروفة فى يومنا هذا بالمسكوبيه وباب العمود وباب الساهرة . وقضى هناك عشرين يوماً قبل أن يتمكن من فتح المدينة ، قضاها فى تركيب آلات الحصار ، وفى تهيئة وسائل القتال . وكانت قوة الدفاع فى داخل المدينة مؤلفة يومئذ من ستين

---

(١) منهم الأستاذ مكاليستر . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عادل جبر فى العدد ١٤ — ٩٩٣ من مجلة (صوت الشعب) .

(٢) (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين) لأبى شامة ص ٢٦٠ .

ألف مقاتل[١] ، وكانت محاطة من جهاتها الأربع بسور منيع .

وبعد أن أتم ترتيباته ، وأصبح قادراً على اقتحام الأسوار ؛ أنذر السكان طالباً إليهم الاستسلام ولما أبوا راح يضربهم بالمنجنيق . فنشب قتال عنيف ، أبلى فيه الفريقان بلاء حسناً . وقتل منهما خلق كثير . وتمكن المسلمون من خرق جانب من السور من ناحيته الشرقية . فيئس الصليبيون . وأرسلوا رسلهم عارضين الاستسلام . ولقد تردد صلاح الدين ، فى بادىء الأمر . ولكنه عاد فرضى . ولا سيما عند ما قال له الرسول باليان[٢] إنه إذا ما أصر على دخول المدينة عنوة فإن الصليبيين معتزمون أن يقتلوا المسلمين من الأسرى الذين كانوا فى المدينة ، وعددهم خمسة آلاف . أضف إلى ذلك أنهم (أى الصليبيين) سيقتلون نساءهم لئلا يقعن فى أيدى المسلمين وسوف يهدمون الصخرة والأقصى .

وبعد أن استشار صلاح الدين قواده منح الصليبيين ما يطلبون . فأتاح لهم مغادرة المدينة لقاء الجزية ، على أن تدفع هذه خلال أربعين يوماً . وأقام على أبواب المدينة أمناء ليجبوا الجزية . فدفعها الصليبيون عشرة دنانير شامية عن كل رجل ، وخمسة عن كل امرأة ، ودينارا واحدا عن كل طفل ؛ وغادروا المدينة دون أن يصابوا بأذى . وعفا عن كثيرين مفتدياً هو وحده عشرة آلاف شخص ، وأخوه سيف الدين الملقب بالملك العادل سبعة آلاف شخص

وهكذا تم لصلاح الدين فتح بيت المقدس ، وتم ذلك فى يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ — ٢ أكتوبر ١١٨٧ م .

خشى الصليبيون أن يقابلهم صلاح الدين بمثل ما فعلوه يوم احتلوا المدينة ؛ إذ قتلوا يومئذ — كما سبق وقلنا — تسعين ألفاً من المسلمين . ولكن صلاح الدين أظهر من التسامح والعفو ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير .

---

(١) (النوادر السلطانية فى المحاسن اليوسفية) للقاضى بهاء الدين أبى المحاسن . وابن الجوزى ج ٨ ص ٢٥٤

(٢) (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير ج ١١ ص ٢٠٧ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٠

بعد احتلال القدس انتشر جنود صلاح الدين فى شوارع المدينة وأحيائها يحفظون الأمن والنظام ؛ فلم يقع فى المدينة حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التى تلازم الفتح عادة . وراحت الأعلام الإسلامية تخفق على الأسوار .

وبعد أن وزع الهبات والعطايا على قواد جيشه وأمرائه ، وانتهى من قبول تهانى المهنئين ، شرع فى تنظيم الشؤون . فذهب قبل كل شىء إلى مسجدى الصخرة والأقصى ، وأزال ما بهما من آثار نصرانية . ثم عمرهما تعميراً يتناسب والغاية التى أنشئا من أجلها . ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى كان فى حلب ، وكان قد صنع قبل ذلك بعشر سنين وبأمر من نور الدين ليؤتى به إلى القدس عند فتحها .

وأمر صلاح الدين بإغلاق كنيسة القيامة ريثما ينتهى القتال ، ولما انتهى هذا أمر بفتحها . وفتح للمسيحيين مجال التعبد فيها بحرية .

ومن الأعمال التى قام بها أنه أتى بعدد من القبائل العربية كبنى حارث وبنى مرة وبنى سعد وبنى زيد والجرامنة ، فأقطعها بعض أجزاء المدينة ، ليستوطنوها . إنه هو الذى رتب الأعياد والمواسم المعروفة فى بلادنا كموسم النبى موسى فى القدس ، والمواسم الأخرى فى المدن الفلسطينية الأخرى . وإن قال آخرون إن هذه المواسم من وضع الملك الظاهر بيبرس . والوقت الذى اختير لإقامة هذه المواسم هو الوقت نفسه المخصص لعيد الفصح . ذلك العيد الذى يفد فيه إلى القدس عدد كبير من المسيحيين ، ولا سيما الأوربيين ، كزائرين ، فخشى المسلمون أن ينقلب الزائرون إلى جند فى نهاية الأمر فيحتلوا المدينة .

غادر صلاح الدين القدس لخمس بقين من شعبان . ثم عاد فزارها فى السنة التالية (٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م) . وقد نزل فى هذه المرة فى دار القسوس المجاورة لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، وانتعشت الحركة التجارية فى المدينة إثر الفتح الصلاحى ؛ فكثرت المواد التى كانت تصدرها إلى الخارج ،

ومنها الجبن والقطين والزبيب والزيتون والتفاح وقضم قريش والمرايا وقدور القناديل والإبر والألبان .

ومن آثار صلاح الدين فى القدس (البيمارستان)[١] ؛ أنشأه فى البقعة التى تقوم عليها سوق البيزار وكنيسة الألمان فى الدباغة وشطر من سوق أفتيموس ، وفى قول إن هذا المستشفى كان هناك فى زمن الصليبيين وإنه هو الذى أسسه الفاطميون . وإن صلاح الدين وسعه فجعله من أعظم المستشفيات فى الإسلام . وكان يداوى فيه الجرحى والمرضى من الجنود والأهلين من غير أجر ولا عوض .

و (الخانقاه الصلاحية) أنشأها فى جانب من منزل البطريرك الملاصق لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، ذلك المنزل الذى قلنا إنه نزل فيه عندما زار القدس للمرة الثانية : وقد اتخذها مسجداً ورباطاً للصلحاء الصوفيين .

واهتم صلاح الدين بسور المدينة ؛ فعمره وجدد ما تهدم منه ، وأنشأ عدداً من الأبراج الحربية فى الجزء الواقع بين باب العمود وباب الخليل ، وحفر حول السور الخنادق لئلا يسهل على الصليبيين الدنو من المدينة ؛ وكثيراً ما رآه الناس وهو يشارك العمال فى نقل الحجارة وأعمال البناء . وكذلك قل عن أولاده وأمرائه وعن أخيه العادل .

ومن آثاره (قبة يوسف) القائمة على الطرف القبلى من فناء الصخرة . و (جامع الجبل) الكائن على جبل الطور ، إلى الشرق من المدينة . و (مقبرة الساهرة) وكانت على عهده تدعى مقبرة المجاهدين . ومن آثاره : (المدرسة الخنثية) بجوار المسجد الأقصى من القبلة ، خلف المنبر وقفها عام ٥٨٧ هـ — ١١٩١ م) .

---

(١) (تاريخ البيمارستانات فى الإسلام) للدكتور أحمد عيسى ص ٢٣٠ و (عقد الجمان) للعينى .

و (المدرسة الصلاحية) على بعد بضعة أمتار من السور الشرقى عند باب الأسباط . كانت فيما مضى مدرسة للروم . بنيت فى المكان الذى كان فيه بيت حنة والدة مريم البتول وبعلها يواكيم . وكان فيها على عهد الصليبيين كنيسة يسمونها كنيسة القديسة حنة ؛ فجعلها صلاح الدين مدرسة ، ووقفها للفقهاء الشافعية ، ورباطاً للمتصوفين . وكان ذلك بتاريخ ٥٨٨ هـ — ١١٩٢ م . وطار صيت هذه المدرسة فى ذلك العهد وفى العهود الإسلامية التى تلته . وبقيت فى حوزة المسلمين حتى القرن التاسع عشر للميلاد ، فتنازل عنها الأتراك للفرنسيين بعد حرب القرم . لأنهم (أى الفرنسيين) وقفوا إلى جانب الأتراك وخاصموا الروس فى الحرب المذكورة . وأعطاها الفرنسيون إلى الآباء البيض ، فاتخذوها مدرسة إكليركية . وبقيت كذلك حتى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ م) . إذ جعلها الأتراك كلية باسم (الصلاحية) . ولما سقطت القدس فى يد الإنكليز أعادها هؤلاء إلى الآباء البيض . فأعادوها مدرسة وفيها متحف وكنيسة .

و (المدرسة الميمونية) على بعد مئتى متر من السور الشمالى وعلى مقربة من باب الساهرة . وقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون بن عبد الله القصرى خازن الملك صلاح الدين (٥٩٣ هـ — ١١٩٦ م) . واندثرت مع الزمن ، فاتخذ جانب منها فاخورة والجانب الآخر مزبلة ، وظلت كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر . فعمرها الأتراك (١٣١٠ هـ — ١٨٩٢ م) واتخذوها مدرسة أسموها (قدس شريف مكتب أعداديس) . وسميت خطأ (المأمونية) نسبة للخليفة العباسى المأمون . ولقد تعلم فيها الكثيرون من أبناء بيت المقدس ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب .

وقلبها الإنجليز ، عند احتلالهم المدينة (١٩١٧) إلى مدرسة للبنات .

هذا ما تيسر نقله عن الآثار التى تمت فى القدس على عهد صلاح الدين .

(٦)

ولما مات صلاح الدين (٥٨٩ هـ — ١١٩٣ م) ودفن فى دمشق ، بكاه الناس . ذلك لأنه حررهم من ربقة الاستعمار والذل ، وقادهم الى المجد ، وراحت كلمة الإسلام هى العليا فى هذه الديار . وظلت كذلك زهاء سبعة قرون .

القدس وحفدة صلاح الدين
(١١٩٣ م)

انقسمت إمبراطورية صلاح الدين ، بعد وفاته ، إلى عدة ممالك ؛ فصارت الشام وفلسطين لابنه على الملقب بالملك الأفضل ، ومصر لابنه عثمان الملقب بالملك العزيز ، وحلب لابنه غازى الملقب بالملك الظاهر ، والكرك وقسم من الجزيرة وما بين النهرين لأخيه الملك العادل ، واليمن لأخيه الثانى طغتكين بن أيوب ، وحمص لابن عمه أسد الدين شركوه .

وكانت القدس مضافة للأفضل ؛ وهو الذى أنشأ فيها (المدرسة الأفضلية) أنشأها بحارة المغاربة ، وكانت على عهده تعرف بالقبة ، ووقف معها حارة المغاربة . وكان ذلك فى سنة ٥٨٩ هـ — ١١٩٣ م . ومن آثاره (المسجد العمرى) الكائن إلى الجنوب من ساحة كنيسة القيامة .

تنازل الملك الأفضل بعد قليل عن القدس[١] لأخيه الملك العزيز ، مفضلا ضمها إلى مصر . ذلك لأنها ، على قول وزيره ابن الأثير ، كانت فى حاجة إلى المال والرجال لدفع عادية الفرنج عنها . فتقبلها العزيز ، وأرسل إلى متوليها الأمير جرديك بن عبد الله النورى عشرة آلاف دينار لينفقها فى عسكر القدس

---

(١) (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزى ج ١ ص ١١٥

ثم أرسل إليها جنداً آخرين ، خشية أن يعود الفرنج لاحتلالها ، فخطب له فيها .

ثم عاد الأخوان ، فتنافرا (١١٩٤ م) . كل منهما يريد ضمها إلى رقعته : الملك الأفضل فى الشام ، والملك العزيز فى مصر . وراح عمهما الملك العادل يتدخل بينهما ، فيزيد الناز ضراماً ، وأيد العزيز على الأفضل ، فتمكن العزيز من نشر كلمته فى مصر والشام معاً ، ونزل القدس فى رمضان ٥٩٢ هـ — ١١٩٥م ، فأقال نائبها أبا الهيجاء السمين ، وأقام مكانه الأمير شمس الدين سنقر الكبير .

وألغيت على عهده بعض الضرائب والرسوم ومنع استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة .

ولما توفى الملك العزيز (١١٩٨ م) تولى الملك ولده محمد ، ولقب بالسلطان الملك المنصور ناصر الدين ، ولما كان هذا صغيراً ، أقيم الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى أتابكاً (أى وصيا) عليه . وحدثت فى القدس على عهده مؤامرة اشترك فيها عدد كبير من الأمراء ، ومنهم نائب القدس الأمير صارم الدين صالح . فكاتب هؤلاء الملك العادل ، وكان يومئذ فى دمشق ، ليأتى ويدير القدس . إلا أن الملك الأفضل الذى اطلع على هذه المؤامرة أحبطها ، وسار إلى مصر ؛ فاستولى على أمور الدولة . وعادت البلاد ، فانقسمت إلى قسمين : قسم يؤيد الملك المنصور بوصاية الملك الأفضل فى مصر ، وقسم يؤيد الملك العادل فى الشام . وفى هذه الغمرة من الحروب الأهلية راحت القدس تتلظى على جمر الجوع والغلاء ، وظلت الأزمة فيها قائمة إلى أن تغلب العادل على ابن أخيه الأفضل ، فدخل مصر ، وأصبح الآمر الناهى فيها وفى الشام معاً . ولقب بالسلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب . وعلى عهده بنيت المدرسة الجراحية الكائنة على طريق نابلس بالحى المعروف بالشيخ جراح . وقفها الأمير حسام الدين حسين شرف الدين يحيى الجراحى (٥٩٨ هـ — ١٢٠١م) ومن آثار الملك العادل فى القدس سقاية الحرم والمطهرة ١٢٠٢ م .

ولما مات ترك فى خزانته سبعمائة ألف دينار . استولى عليها ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى . وكانت القدس من أعماله . وكان يديرها بالنيابة عنه الأمير عز الدين عمر بن يغمور المعظمى وكان يلقب بالمتولى[1] . ثم أدارها الأمير بدر الدين الهكارى .

ولقد اقتنى أهل القدس أثر مليكهم المعظم شرف الدين عيسى ، فراحوا يلبسون على عهده الكلوتة الصفراء بلا شاش ، وكانوا يرخون ذوائب شعورهم من تحتها . وقيل إن الملك المعظم عيسى كان يحب القدس وكثيراً ما كان يزورها متفقداً أحوالها . وله فيها آثار جمة ، نذكر منها :

(المدرسة المعظمية) التى بناها فى ٦١٠ هـ — ١٢١٣ م . وإنا نرى بقاياها بين باب حطة والباب العتم شمالى الطريق المؤدية إلى باب الأسباط .

و (المدرسة البدرية) فى الحى المعروف بحى الواد ، وعلى مقربة من ضريح القرمى . بناها فى السنة ذاتها . وقفها بدر الدين محمد بن أبى القاسم الهكارى أحد أمراء الملك المعظم عيسى (٦١٠ هـ — ١٢١٣ م) .

و (سبيل شعلان) بناه بعد ذلك بثلاث سنين (١٢١٦ م) .

والرواق الشمالى الذى نراه فى مدخل المسجد الأقصى ، والمؤلف من سبعة عقود كبيرة . وكذلك الأبواب الخشبية التى نجدها عند مدخل الأقصى فى الشمال . فقد أنشأ ذلك كله عام ١٢١٧ م .

ولكن هذا الملك الذى أحب القدس وعمرها عاد فأمر بتخريبها سنة ١٢١٩م خشية أن يستولى الفرنج عليها . وذلك قد حدا بالسكان لذمه فمات مهموماً سنة (١٢٢٦ م) .

تولى الملك بعد المعظم عيسى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود . ولما

---

(١) (صبح الأعشى) للقلقشندى . ج ٤ ص ٢٢ .

كان هذا صغيراً وعاجزاً عن تدبير شؤون الملك ، هاجمه عمه الملك الكامل ؛ فأخذ منه معظم البلاد ، ومنها القدس (١٢٢٧ م) . وعلى عهده عقد المسلمون مع الصليبيين (١٢٢٨ م) هدنة مدتها عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعون يوماً . وقد نصت هذه الهدنة التى وقع عليها كل من الملك الكامل والإمبراطور فريدريك على أن يأخذ الفرنج القدس من المسلمين فيبقوها على ما هى عليه من خراب ، خلا الحرم القدسى وما فيه من مساجد كالصخرة والأقصى ، فإنه يبقى بيد المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة . وتكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج . وأما القرى الواقعة بين يافا وعكا وبين اللد والقدس فإنها تعطى للفرنج .

فأنكر المسلمون على الملك الكامل عمله هذا ، وراحوا يشتمونه فى جميع الأقطار . وحاصر الكامل بعدئذ دمشق ، فاستولى عليها وتحالف مع ابن أخيه الملك الناصر فأعطاه بدلا من دمشق الكرك والبلقاء ونابلس والقدس . وانفرد هو بالحكم فى مصر وباقى بلاد الشام .

ولما مات الكامل تولى الملك من بعده ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٨ م) . واستولى هذا على معظم البلاد التى كانت بيد الناصر ، ومنها أعمال القدس . ولكن الناصر عاد فتغلب عليه واستردها منه .

وفيما كان ملوك بنى أيوب يقتتلون ، كان الفرنج يستعدون لقتالهم ؛ وقد حصنوا القدس تحصيناً تاماً ، ولا سيما السور الذى خربه الملك المعظم عيسى ، فقد عمروه . ولما بلغ الملك الناصر داود عملهم هذا ، سار إليهم . وبعد أن حاصر القدس واحداً وعشرين يوماً أخذها منهم عنوة (١٢٣٩ م) وأفرج بعدئذ عن الملك الصالح نجم الدين فاجتمعا معاً فى القدس وتحالفا : على أن تكون ديار مصر للصالح ، والشام للناصر ؛ وأن يعطى الصالح للناصر مئتى ألف دينار .

ولكنهما عادا فاختلفا ، فاستغل الفرنج خلافهما واستولوا على القدس .

وراح أهل مصر والشام يقتتلون. واستنجد الأولون بالخوارزمة .فجاء هؤلاء فى عشرة آلاف فارس ، وراحوا يقاتلون أهل الشام والفرنج ، واحتلوا القدس ، وأعملوا سيوفهم فى رقاب من كان فيها من النصارى ، وأتوا فيها وفى غيرها من البلدان بأعمال تقشعر لها الأبدان . وقتل من الفرنج ومن أهل الشام فى هذه المعارك ثلاثون ألفاً أو يزيد . وعادت القدس فصارت من أملاك الملك الصالح نجم الدين (١٢٤٥) ونزلها الملك بعد ذلك بقليل (١٢٤٦ م) فتصدق على فقرائها بألفى دينار وأمر بعمارة السور .

قام الصليبيون بعد ذلك بحملة جديدة لتخليص القدس من يد المسلمين — وهى التى أسموها بالحملة السابعة (١٢٤٨ م) . وتبادل زعيم هذه الحملة لويس التاسع والملك الصالح نجم الدين — قبل أن يشرعا فى القتال — رسائل التهديد والإنذار . ثم التقيا فى ميادين القتال . ودارت بين الفريقين معارك دامية . وكان أن مات الملك الصالح (١٢٤٩ م) قبل أن تنتهى تلك المعارك إلى نتيجة حاسمة .

فتولى الملك بعده ولده الملك المعظم غياث الدين تورانشاه .

ولما لم يحسن هذا إدارة الملك ، نفرت قلوب المماليك البحرية منه ، فتآمروا عليه وقتلوه (١٢٥٠ م) . وبمقتله انقرضت دولة بنى أيوب .

القدس فى عهد المماليك

(١٢٥٠)

اجتمع أمراء المماليك ، إثر مقتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه (١٢٥٠ م) وأقاموا عليهم (شجرة الدر) . فأصبحت هذه سيدة البلاد . كما أقاموا الأمير (عز الدين أيبك) التركمانى على رأس جيشها . ثم اقترنت هذه بالأمير عز الدين ، وتنازلت له عن الملك ، فأصبح ملكاً ، وأسس العائلة المملوكية الأولى ، فلقب بالملك المعز عزالدين أيبك الجاشنكير التركمانى . وكانت القدس من أعماله .

وقتل المعز بعد ذلك بسبع سنين . فتولى الملك ابنه الملك المنصور على (١٢٥٧ م) . وكان هذا صغيراً ، وضعيفاً ، فاستغل أهل الشام ضعفه . واستولوا على القدس . وخطبوا فيها للملك المغيث بن العادل بن الكامل بن العادل بن أيوب . ثم عاد المصريون ، فتغلبوا على خصومهم . واحتلوا القدس . وخلعوا ملكهم . وأقاموا مكانه الأمير سيف الدين قُطز المعزى ولقبوه بالملك المظفر (١٢٥٩ م) .

ولما قتل قُطز أقام الأمراء بدلا منه الشخص الذى قتله وهو الأمير ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ م) . ولقب هذا بالملك الظاهر بيبرس .

زار الملك الظاهر بيبرس القدس مرتين : مرة فى عام ١٢٦٢ م وأخرى فى عام ١٢٦٥ م . ومن المنشآت التى تمت على عهده :

(دار الحديث) بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسلة . وقفها

الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين محمد بن أبى القاسم الهكارى (٦٦٦هـ — ١٢٦٧ م) .

(المدرسة الأباصيرية) تجاه الرباط المنصورى بجوار باب الناظر . وقفها الأمير علاء الدين آيدوغدى (٦٦٦ هـ — ١٢٦٧ م) وهو مدفون فيها .

ولقد جدد الملك الظاهر بيبرس ما كان قد تهدم من مسجد الصخرة[١] . كما جدد قبة السلسلة وزخرفها . وأنشأ خاناً . ووقف بعض القرى لينفق ريعها على مصالح المسجد فى كل عام .

وإن الفصوص التى على الرخام فى مسجد الصخرة من الظاهر من آثار الملك الظاهر (١٢٧٠ م) . وهو الذى بنى على قبر موسى عليه السلام عند الكثيب الأحمر قبلى أريحا قبة ومسجداً (١٢٦٩ م[٢]) .

ولما مات الملك الظاهر بيبرس تولى الملك ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد (١٢٧٧ م) . ثم ابنه الثانى الملك العادل بدر الدين سلامش (١٢٧٩ م) . ثم الملك المنصور سيف الدين قلاون (١٢٨٠ م) . وعلى عهده قامت بالقدس منشآت عديدة ، نذكر منها :

(رباط قلاون) ويسمى أيضاً الرباط المنصورى . أنشأه عام ١٢٨٢ م . ووقفه على الفقراء من زوار القدس . إنه واقع قبلى الطريق المؤدية إلى الحرم من الغرب عند باب الناظر .

(المسجد القلندرى) واقع فى طريق دير اللاتين . أنشأه عام ١٢٨٧ م .

(الكبكية) ويسميها الناس القبقية إنها قبة جميلة واقعة فى تربة ماملا وإلى الشمال الشرقى من البركة فيها ضريح الأمير علاء الدين آيد وغدى بن عبد الله الكبكى (١٢٨٩ م) .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٤ .

(٢) (الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل) لمجد الدين ص ٣٩٤ وص ٦٠٥ .

ومن الحوادث الهامة التى جرت فى عهده أنه أصدر مرسوماً يقضى بألا يستخدم فى خدمات الدولة أحد من أهل الذمة — اليهود والنصارى — فصرفوا عنها (١٢٨٥ م) .

وعقدت بين السلطان والفرنج فى عكا هدنة (١٢٨٣ م) . مدتها عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، على أن يكون للسلطان جميع الديار المصرية والحجازية ومعظم بلاد الشام والأردن وفلسطين بما فى ذلك القدس[١] .

وبعد وفاته تولى الملك ابنه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل (١٢٩٠ م) . ثم ابنه الثانى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون (١٢٩٣ م). فالسلطان الملك العادل زين الدين كتبغا (١٢٩٤ م) . فالسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين (١٢٩٦ م) . فالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون للمرة الثانية (١٢٩٨ م) فالسلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس (١٣٠٨ م) فالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون للمرة الثالثة (١٣٠٩ م) . ودامت سلطنته فى هذه المرة حتى سنة ١٣٤١ م .

وقامت فى القدس على عهد الملك الناصر محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاون المنشآت التالية[٢] :

(رباط الكرد) أمام المدرسة الأرغونية بباب الحديد . أنشأه المقر السيفى كرد سنة (٦٩٣ هـ — ١٢٩٣ م) .

(المدرسة الدوادارية) فى مدخل الباب المعروف بباب الدوادارية .

(الباب العتم) من أبواب الحرم الشمالية . وقفها الأمير علم الدين أبو موسى

---

(١) (تاريخ الدول والملوك) ج ١٤ ص ١٨٨ . و (دولة ابن قلاوون فى مصر) للدكتور محمد جمال الدين سرور ص ٢٣٣ .

(٢) (الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل) للقاضى مجير الدين .

سنجر بن عبد الله الدوادار الصالحى النجمى سنة ٦٩٥ هـ — ١٢٩٥ م .

(المدرسة السلامية) بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية وإلى الشمال من المدرسة الدوادارية . وقفها الخواجا مجد الدين أبو الفدا إسماعيل السلامى سنة ٧٠٠ هـ — ١٣٠٠ م .

(المدرسة الوجيهية) بخط درج المولى عند باب الغوانمة . وقفها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد النجا الحنبلى المتوفى سنة ٧٠١ هـ — ١٣٠١ م .

(المدرسة الموصلية) بباب شرف الأنبياء . وقفها الخواجا فخر الدين الموصلى .

(المدرسة الجالقية) على مئتى متر من الحرم إلى الغرب عند ملتقى طريق باب السلسلة بطريق الواد . أنشأها الأمير ركن الدين بيبرس الجالق الصالحى سنة ٧٠٧ هـ — ١٣٠٧ م .

(المدرسة الجاولية) قريبة من درج الغوانمة عند زاوية الحرم الشمالية . وقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولى نائب غزة والقدس فى ٧١٥ هـ — ١٣٠٥ م. جعلها مدرسة . واتخذها شاهين الذباح داراً للنيابة سنة ٨٠٠ هـ — ١٤٠٠ م . كانت على عهد المكابيين قلعة . ووسعها هيرودس فأضاف إليها برجاً أسماه (برج أنطونيا) . واتخذت فيما بعد مقراً لولاة الرومان. وفيها أقام الوالى الرومانى بيلاطس الذى حاكم المسيح ، وهناك حكم عليه بالصلب . وفى عهد المماليك صارت مدرسة ، وداراً للنيابة كما قدمنا . وقد اتخذها الأتراك فى نهاية القرن السادس عشر قشلاقاً وداراً للحكم . ووضع المجلس الإسلامى يده عليها فى ١٩٢٢م كجزء من أملاكه الموقوفة . واتخذها مدرسة . وعرفت بعد ذلك بالروضة (روضة المعارف الوطنية) . وفى أثناء الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ — ١٩٣٨) اتخذها الإنجليز داراً للشرطة . وفى الحرب الفلسطينية (١٩٤٧ — ١٩٤٩) اتخذت مقراً لفرق المناضلين المنتمين إلى الجهاد المقدس، ثم مقراً للكتيبة السادسة من كتائب الجيش العربى .

(المدرسة الكريمية) بباب حطة . وقفها الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية وكان ذلك فى ٧١٨ هـ — ١٣١٩ م . ذكرها ابن بطوطة فى رحلته ، وقال إن واقفها كريم الدين كان قبطيًا فأسلم .

(المدرسة التنكزية) بباب السلسلة . أنشأها الأكبر تنكز الملكى الناصرى فى ٧٢٩ هـ — ١٣٢٩ م . كانت فى عهد المماليك مدرسة عظيمة وداراً للحديث . سكنها السلطان فرج بن برقوق . وفى عهد قايتباى اتخذت مقرًا للقضاء والحكام . وفى العهد التركى صارت محكمة شرعية . وبقيت كذلك فى أوائل عهد الاحتلال الإنجليزى ثم سكنها رئيس المجلس الإسلامى الأعلى .

(المدرسة الأمينية) إلى الغرب من باب شرف الأنبياء . أنشأها الصاحب أمين الدين عبد الله سنة ٧٣٠ هـ — ١٣٢٩ م . ويقيم فيها الآن جماعة من دار الإمام .

(الخانقاه الفخرية) مجاورة لجامع المغاربة على بعد مئتى متر من المسجد الأقصى إلى الغرب . وقفها القاضى فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله فى سنة ٧٣٢ هـ — ١٣٣١ م . يسكنها الآن فريق من آل ابن السعود .

(المدرسة الملكية) شمالى الحرم بين المدرسة الفارسية من الشرق والمدرسة الأسعردية من الغرب ، ومن أسمائها (مدرسة الجوكندار) . عمرها الحاج ملك الجوكندار سنة ٧٤١ هـ — ١٣٤٠ م .

ومنها الرواق الممتد من باب الغوانمة إلى باب الناظر (١٣٠٧ م) . فباب القطانين . الكائن فى وسط هذه السوق . و (سوق القطانين) نفسها وكانوا يسمونها (خان تنكز) فقد أنشىء عام ١٣٣٦ م . ومن المنشآت التى تمت على عهده الجامع الكائن بداخل القلعة قريباً من زاويتها القبلية الغربية ١٣١٠م وهو الذى رمم القلعة وحصنها ١٣٢٠ م .

وعلى عهده فتح بالمسجد الأقصى الشباكان اللذان تراهما إلى يمين المحراب الكبير ويساره . وجدد تذهيب قبة المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ؛ وعُمرت القناطر التى على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة ، مقابل باب حطة وباب شرف الأنبياء . وعمّر (السور القبلى) عند محراب داود .

وعلى عهده عمرت (قناة السبيل) . ووصل الماء إلى المسجد الأقصى ١٣٢٨ م . وأنشىء الحوض الذى يسميه الناس فى يومنا هذا بـ (الكأس) . إنه مصنوع من الرخام وكائن فى الساحة الواسعة بين مسجدى الصخرة والأقصى .

ويظهر أن القدس على الرغم من قدسيتها ومن هذه المنشآت التى قامت فيها كانت يومئذ تعتبر منفى للذين يحل عليهم غضب السلطان . فقد حدثنا المؤرخون عن أشخاص كثيرين ، بعضهم من طبقة الأمراء ، نفوا إلى القدس ، وأمروا بالإقامة الجبرية فيها . ولقد زارها الملك نفسه مراراً ، وتفقد أحوالها .

وبعد وفاته تسلطن ثمانية من أولاده (١٣٤١ — ١٣٦١ م) هم : الملك المنصور أبو بكر ، والملك الأشرف كجك ، والملك الناصر أحمد ، والملك الصالح إسماعيل ، والملك الكامل شعبان ، والملك المظفر حاجى ، والملك الناصر حسن ، والملك الصالح صلاح الدين . فلم يأت واحد من هؤلاء بأى عمل يذكر فى القدس . وما كان الواحد منهم ليتولى الملك ، حتى يقوم أخوه عليه ، أو أحد أقاربه ؛ فيقتله ، أو يقيله ، أو ينفيه .

وكذلك قل عن الأيام التى انقضت على عهد المماليك الذين تسلطنوا من بعدهم (١٣٦١ — ١٣٨١ م) . وهم الملك المنصور محمد بن حاجى ، والملك الأشرف شعبان بن حسن ، والملك الصالح حاجى بن شعبان . وهو آخر من حكم هذه البلاد من دولة المماليك الأولى ويسمونها البحرية أو التركمانية .

ومن المنشآت التى وصلت إلينا أخبارها والتى أنشئت فى أواخر هذه الدولة :

(المدرسة الفارسية) بين الأمينية من الشرق والملكية من الغرب . وقفها الأمير فارس الدين ألبكى بن الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطان فى سنة ٧٥٥ هـ — ١٣٥٤ م .

(المدرسة الأرغونية) عند الباب الحديد من أبواب الحرم فى الناحية الغربية . شرع فى إنشائها الأمير أرغون الكاملى سنة ٧٥٨ هـ — ١٣٥٧ م . وأكملها الأمير ركن الدين بيبرس سنة ٧٥٩ هـ — ١٣٥٨ م . يسكن جانباً منها جماعة من آل العفيفى . وفى الجانب الآخر دفن المغفور له الملك حسين بن على الذى أوقد نار الثورة ضد الأتراك سنة ١٣٣٤ هـ — ١٩١٥ م .

(المدرسة التشتمرية) بباب الناظر على مقربة من الحسنية . وقفها الأمير تشتمر السيفى من أمراء الملك الناصر حسن بن محمد قلاون سنة ٧٥٩ هـ — ١٣٥٧ م .

(المدرسة الطشتمرية) فى طريق باب السلسلة . بناها الأمير طشتمر العلائى سنة ٧٨٤ هـ — ١٣٨٢ م .

(المدرسة الخاتونية) بباب الحديد غربى الحرم وإلى الشمال من باب القطانين . وقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية فى ٧٥٥ هـ — ١٣٥٤ م . وأكملت عمارتها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه سنة ٧٨٢ هـ — ١٣٨٠ م . ودفن فى جانب منها الأمير محمد على من أمراء الهند المسلمين ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م .

(المدرسة البلدية) إلى الشمال من باب السكينة . وكانت فى ما مضى تعرف بمدرسة الأمير منكلى نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين منكلى بن الأحمدى سنة ٧٨٢ هـ — ١٣٨٠ م .

(المدرسة الأسعردية) على مقربة من الجاولية شمالى الحرم . بنيت حوالى سنة ٧٦٠ هـ — ١٣٥٨ م . وقفها الخواجا مجد الدين عبد الغنى بن سيف الدين

أبى بكر بن يوسف الأسعردى سنة ٧٧٠ هـ — ١٣٦٨ م . جدد عمارتها المجلس الإسلامى الأعلى فى أوائل القرن العشرين ، واتخذها داراً للكتب باسم (المسجد الأقصى) .

(دار القرآن السلامية) تجاه دار الحديث على طريق باب السلسلة . وقفها سراج الدين عمر بن أبى بكر أبى القاسم السلامى ، سنة ٧٦١ هـ — ١٣٥٩م .

(المدرسة المنجكية) إلى الشمال من باب الناظر . أنشأها الأمير سيف الدين منجك سنة ٧٦٢ هـ — ١٣٦٠ م . اتخذها المجلس الإسلامى خلال الربع الأول من القرن العشرين مقراً لأعماله . وقد ضم إليها جزءاً من الدار المجاورة والمعروفة بالحسنية .

(المدرسة المحدثية) على مقربة من الوجيهية بباب الغوانمة . وقفها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمى الأردبيلى سنة ٧٦٢ هـ — ١٣٦٠ م . ألحق جانب منها بكلية روضة المعارف الوطنية . ويقيم فى الجانب الآخر جماعة من آل الشهابى

(المدرسة الحسنية) على باب الأسباط . وقفها شاهين الحسنى الطواشى فى زمن الملك الناصر حسن المتوفى سنة ٧٦٢ هـ — ١٣٦٠ م . وانتقلت مع الزمن إلى جماعة من النصارى .

(المدرسة الطازية) فى طريق باب السلسلة من الشمال ، تجاه تربة بركة خان . مؤسسها الأمير طاز من مماليك السلطان محمد المتوفى سنة ٧٦٣ هـ — ١٣٦٢ م . وكان يدرس فيها فطاحل العلماء المقدسيين . يسكنها الآن جماعة من آل هداية .

(المدرسة البارودية) بباب الناظر بالقرب من التشتمرية . وقفها الست الحاجة سفرى خاتون بنت شرف الدين أبى بكر بن محمود المعروف بالبارودى سنة ٧٦٨ هـ — ١٣٦٦ م .

(المدرسة الحنبلية) بباب الحديد . وقفها الأمير بيدمر نائب الشام سنة

٧٨١ هـ — ١٣٧٩ م . يسكنها اليوم جماعة من آل القطب .

(المدرسة اللؤلؤية) بخطمر زبان بجوار حمام علاء الدين الأباصيرى . وقفها الأمير لؤلؤ غازى عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن سنة ٧٨١هـ—١٣٧٩ م .

ثم جاءت دولة المماليك الثانية ويسمونهم الأبراج أو الشراكسة . ومؤسسها هو الملك الظاهر برقوق . (١٣٨٢ م) . ومن المنشآت التى قامت على عهده :

(خان السلطان) على طريق باب السلسلة . وكان يعرف بالوكالة . ١٣٨٦م .

(دار الست) فى عقبة التكية بين خان الزيت وحارة الواد . بنتها الست طنشق بنت عبد الله المظفرية ١٣٩٨ م . ولما توفيت دفنت فيها . ويسميها المقدسيون فى يومنا هذا (تربة خاصكى سلطان) . وقد عمر الملك الظاهر برقوق (قناة العروب) .

(المدرسة الجهاركسية) بجوار الزاوية اليونسية إلى الشمال . وقفها الأمير جهاركس الخليلى أمير آخور الملك الظاهر برقوق سنة ١٣٨٨ م .

(المدرسة الطولونية) فوق الرواق الشمالى من أروقة الحرم إلى الغرب من باب الأسباط . أنشأها شهاب الدين أحمد بن الناصرى محمد الطولونى فى زمن الملك الظاهر برقوق . على يد مملوكه أقبغا سنة ٨٠٠ هـ — ١٣٩٧ م .

بعد وفاة الملك الظاهر برقوق تولى السلطنة الملوك الآتية أسماؤهم : — الملك الناصر فرج بن برقوق ١٣٩٨ م . والملك المنصور عبد العزيز بن برقوق ١٤٠٥ م والملك الناصر فرج بن برقوق للمرة الثانية ١٤٠٥ م . والإمام المستعين بالله الذى لقب بالملك العادل وجمع بين السلطتين الروحية والسياسية ١٤١٢ م . والشيخ المحمودى ١٤١٢ م . وولده الملك المظفر أحمد ١٤٢١ م . والملك الظاهر ططر ١٤٢١ م . والملك الصالح محمد ١٤٢٢ م .

وقامت فى القدس على عهد هؤلاء بعض المنشآت ، نذكر منها :

(المدرسة النصيبية) غربى المدرسة الأسعردية فى شمال الحرم . وقفها الأمير علاء الدين على بن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين . وقفها عندما كان فى نيابة القدس ٨٠٩ هـ — ١٤٠٦ م . وأما مجير الدين فقد أسماها (المدرسة الصيبية) . أضيف جانب منها إلى الكلية المعروفة بروضة المعارف الوطنية .

(المدرسة الفنرية) مقابل الطولونية من الشرق ، على مقربة من باب الأسباط . أنشأها شهاب الدين الطولونى وجعلها للملك الظاهر برقوق . واشتراها رجل من الروم اسمه محمد شاه ابن الفنرى الرومى ، فوقفها ، ونسبت إليه سنة (٨١٥ هـ) .

(المدرسة الكاملية) بباب حطة بجوار المدرسة الكريمية من الشمال وقفها كامل من أهل طرابلس سنة ٨١٦ هـ — ١٤١٣ م .

وفى زمن الملك الأشرف برسباى الذى دام على سرير الملك ستة عشر عاماً (١٤٢٢ — ١٤٣٧ م) . أنشئت فى القدس منشآت عديدة ، نذكر منها :

(سبيل شعلان) من السبل الكائنة فى ساحة الحرم بين صحن الصخرة وباب الناظر فإن هذا السبيل الذى أنشأه الملك المعظم عيسى (١٢١٦ م) . جدده الملك الأشرف برسباى (١٤٢٩ م) .

(سبيل علاء الدين البصرى) غربى الحرم ١٤٣٥ م .

(المدرسة الباسطية) شمالى الحرم بالقرب من باب العتم . أنشأها شيخ الإسلام شمس الدين محمد الهروى شيخ المدرسة الصلاحية وناظر الحرمين . ومات قبل إتمام عمارتها . فعمرها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة سنة ٨٣٤ هـ — ١٤٣٠ م . يسكنها جماعة من آل جار الله .

(المدرسة القادرية) بين باب حطة من الغرب ومئذنة إسرائيل من الشرق . أنشأتها مصر خاتون (وفى قول خديجة خاتون) زوجة الأمير ناصر الدين محمد ابن القادر فى أيام السلطان الملك الأشرف برسباى سنة ٨٣٦ هـ — ١٤٣٢ م .

يخيم عليها اليوم الخراب وتحفظ فيها نعوش الأموات .

(المدرسة الحسنية) بباب الناظر غربى الحرم فوق رباط علاء الدين البصير . وقفها الأمير حسن الكشكيلى ناظر الحرمين ونائب السلطنة فى القدس سنة ٨٣٧ هـ — ١٤٣٣ م . يقطنها الآن جماعة من آل البديرى .

(المدرسة العثمانية) بباب المتوضأ تجاه سبيل قايتباى . وقفتها امرأة من الروم تسمى أصفهان شاه خاتون بنت الأمير محمود العثمانى سنة ٨٤٠ هـ — ١٤٣٧ م . يسكنها الآن جماعة من آل الفتيانى .

لم يجر فى القدس شىء يستحق الذكر على عهد الملك العزيز يوسف بن برسباى (١٤٣٧ م) . سوى ما سمعناه عن (المدرسة الجوهرية) التى وقفها الصفدى جوهر زمام الإدارة الشريفة سنة ٨٤٤ هـ — ١٤٤٠ م . أنها واقعة بباب الحديد تجاه المدرسة الأرغونية . ويسكنها الآن جماعة من آل الخطيب .

وأما على عهد خلفه الملك الظاهر جقمق (١٤٣٨ م) . فقد وقعت حوادث نذكر منها أن خاصكيًّا اسمه (أينال باى) أرسل إلى القدس للكشف على الأديار ، فهدم ما استجد بدير صهيون ، وانتزع قبر داود من يد النصارى ، وأخرج المستجد من دير السريان ، فصار زاوية . وهدم البناء المستجد ببيت لحم . وقلع الدرابزين المستجد بالقيامة ، فأخذ إلى المسجد الأقصى . وقصارى القول هدم كل ما استجد فى أديرة النصارى . وأصابهم عامئذ (١٤٥٢ م) . كرب عظيم .

وتولى الملك ، بعد الظاهر جقمق ، ابنه الملك المنصور عثمان (١٤٥٣ م) فالملك الأشرف إينال (١٤٥٣ م) . وعلى عهده عمر المسجد الأقصى (١٤٦٠م) وأنشىء السبيل القائم بين المطهرة ومسجد الصخرة والمعروف فى يومنا هذا بسبيل قايتباى .

ثم تولى الملك الملك المؤيد أحمد بن إينال (١٤٦٠ م) . فالملك الظاهر

خوشقدم (١٤٦٠ م) . وعلى عهده عمرت (قناة السبيل) فى ١٤٦٢ م . وشرع فى إنشاء المدرسة الكائنة بجوار باب السلسلة والتى سميت بعدئذ (المدرسة الأشرفية .) ولم يحدث فى القدس شىء ولا أنشئت منشآت تستحق الذكر على عهد الملك الظاهر بلباى (١٤٦٧ م) . لاولا الملك الظاهر تمربغا . وإنما حدثت على عهد خلفه الملك الأشرف قايتباى (١٤٦٧ — ١٤٩٥ م) حوادث وأنشئت منشآت نذكر منها :

(المدرسة المزهرية) بباب الحديد تجاه المدرسة الجوهرية . وقفها الزينى أبو بكر بن مزهر الأنصارى ٨٨٥ هـ — ١٤٨٠ م . يسكن فى جانب منها اليوم فريق من آل الشعبانى .

(المدرسة الزمينية) غربى الحرم فوق الإيوان الذى بباب القطانين . أنشأها الخودجكى الشمسى محمد بن الزمرد خان سنة ٨٨٦ هـ — ١٤٨١ م . يسكنها جماعة من آل العفيفى .

(المدرسة الأشرفية) بالقرب من باب السلسلة وإلى الشمال منه . ومن أسمائها السلطانية . بناها فى الأصل الأمير حسن الظاهرى باسم الملك الظاهر خوشقدم (٨٧٥ هـ — ١٤٧٠ م) وكانت تدعى السلطانية . ولما توفى الملك الظاهر نسبت إلى الملك الأشرف قايتباى فسميت بالأشرفية . ولما زار قايتباى القدس أمر بهدمها فأعاد بناءها ٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م . إنها من أجمل المدارس التى بنيت فى ذلك العهد . و (السبيل) الكائن بين باب السلسلة وباب السكينة .

(وسبيل قايتباى) الكائن فى داخل الحرم فوق البئر المقابلة لدرج الصخرة . ذلك السبيل الذى أنشأه إينال ، وجدد عمارته قايتباى .

وأما الحوادث التى حدثت فى القدس فى عهد قايتباى فكثيرة منها :

أنه قام خلاف شديد بين ناظر الحرمين ونائب السلطان ، سرى إلى السكان .

واضطرب إثر ذلك حبل الأمن . فكثرت السرقات ، وانتشر قطاع الطرق فى جميع أنحاء البلاد .

وزاد الطين بلة احتباس المطر ، وغلاء الأسعار وتفشى الوباء ، وهنا الطامة الكبرى . إذ قيل إن عدد الذين كانوا يلاقون حتفهم من جراء الطاعون فى اليوم الواحد زاد على المئة .

وقام خلاف شديد بين المسلمين واليهود حول دار واقعة فى حارة اليهود بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين . فكان حكم قضاة المدينة ومشايخهم فى صالح اليهود . ولما رفع المسلمون أمرهم إلى السلطان بمصر ، نقض هذا حكم القضاة . ثم عاد السلطان فانصاع لإلحاح اليهود . وأصدر أمره فى صالحهم . فذاعت عندئذ فى القدس شائعات تقول إن اليهود ما كانوا لينجحوا لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للخزائن السلطانية . فثار المسلمون ، وهدموا الكنيس . وذلك قد جعل السلطان قايتباى يغضب غضباً لا مزيد عليه . فأمر بإحضار زعماء المدينة إليه . وأرسلوا مصفدين بالأغلال . وهناك ضربوا وسجنوا . ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن هدأت الفتنة .

واتهم رجل من نصارى القدس بأنه سب الإمام عليا وزوجه فاطمة الزهراء . وعند ما ثبتت التهمة أعدم فى دار النيابة . وتهدم جانب من كنيسة القيامة بسبب كثرة الأمطار . . .

ورفع سكان القدس شكواهم إلى السلطان ضد نائبه فى القدس خضر بك ، لأن هذا كان ظالماً وكان سفاكاً للدماء . فحقق السلطان فى شكواهم . ولما تأكد من صحتها استحضره إليه فضربه ، ثم أقاله .

ولم يكن خلفه (دقمان) بأعدل منه ، أو أحكم . بل كان هو أيضاً ظالماً . فثار المقدسيون ضده . وظلوا يلحون على السلطان إلى أن أقاله من منصبه .

ولم يكن الوضع الدولى يومئذ بأفضل من الوضع الداخلى ، فقد ساءت علاقات

المماليك مع الحكومات المجاورة ، ولا سيما مع الأتراك العثمانيين . وراح كلا الفريقين يحشد جنده على الحدود . وقبل أن تقع الحرب بينهما توفى قايتباى (١٤٩٥ م) . فاختلف الأمراء . وازداد الموقف سوءاً . فلا يكاد يعتلى العرش ملك ، حتى يثور ضده مماليكه وأعوانه ؛ فيخلعوه ، أو يقيلوه .

وهكذا كان مصير الملك الناصر محمد بن قايتباى الملقب بأبى السعادة (١٤٩٥ م) . والملك الأشرف قنسو خمسمئة (١٤٩٥ م) . والملك الظاهر قنسو الثانى الملقب بأبى سعيد (١٤٩٨ م) . والملك الأشرف قنسو الثالث الملقب بجنبلاط (١٤٩٩ م) . والملك العادل سيف الدين طومان باى (١٥٠٠م .) والملك الأشرف قنسو الرابع الملقب بالغورى (١٥٠٠ م) .

وعلى عهده ازداد الموقف سوءاً بين المماليك والأتراك العثمانيين . إذ رحب هذا بكركود أخى السلطان سليم بن بايزيد ، وأمده بعشرين بارجة حربية لمقاتلة أخيه ، وافتتاح القسطنطينية . وهذا قد أغضب السلطان سليماً ، وجعله يفكر فى افتتاح مصر . فسار إليها ، وحارب المماليك فى (مرج دابق) على مقربة من حلب ؛ فتغلب عليهم ، وقتل سلطانهم قنصوه الغورى .

بايع المماليك ، إثر هذا الحادث ، الأمير طومان باى . وحاول هذا أن ينقذ البلاد من الأتراك . إلا أنه فشل . وتمكن السلطان سليم من احتلال هذه البلاد . ثم احتل مصر (١٥١٧ م) . وشنق طومان باى .

وهكذا انتهت دولة المماليك الشراكسة . وحلت مكانها دولة الأتراك العثمانيين.